محمد الغزالي

كيف نتعامل مع القـــــرآن؟

في مدارسة أجراها الأستاذ/ عمر عبيد حسنه

28

طبعة جديدة ومحققة

العنوان: كيف نتعامل مع القرآن؟
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة السابعة يوليو 2005م .
رقم الإيداع: 2002/ 20814
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2049-6

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع:80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) ـ 8330289 (02) ـ فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة – ص . ب : 96 الفجالة – القاهرة.
ت : 5909827 (02) – 5908895 (02) ـ فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية:408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة:47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / C D)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

مدخل الكتاب

طه جابر العلوانى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن تبعه بهديه إلى يوم الدين .

وبعد : فإنه ليشرّف المعهد العالمى للفكر الإسلامى أن يفتح ملفّا ثقافيّا متنوع الجوانب للقرآن العظيم ، وذلك تحقيقًا لرسالة المعهد ، التى تقوم على العمل لإصلاح مناهج فكر المسلمين وإعادة بناء النسق الثقافى الإسلامى بتقديم علوم اجتماعية وإنسانية إسلامية معاصرة ، والبحث عن المنهج الأمثل للتعامل مع القرآن العظيم ، والسنة النبوية المطهرة ، وفق خطة محددة تقوم على دعائم أربع :

أولاها وأهمها:

إعادة استدعاء القرآن العظيم للساحة الثقافية الإسلامية ، وإنهاء حالة الهجر والفصام بينه وبين العقل المسلم ، وجعله المصدر الأول والأهم للمسلم المعاصر ، كما كان كذلك عند السلف ، يرجع إليه ليستقى منه العلم والمعرفة الدقيقة السليمة فى نظرته إلى الإنسان والحياة والوجود ، فى الفطرة الإنسانية والاجتماعية ، فى قضايا الفرد والأسرة والمجتمع ، والعلاقات والنظم .

والدعامة الثانية:

تأصيل منهج فهم السنة والسيرة النبوية ، وسبل الاستفادة منهما فى بناء الثقافة والحضارة الإسلامية المعاصرة .

والدعامة الثالثة:

استيعاب التراث الإسلامى ومناهج فهمه ، وتوظيف الصالح الإيجابى منه فى بناء ثقافتنا الإسلامية المعاصرة ، واستفادة العبر والدروس من قضاياه والتنبيه إلى سلبياته .

والدعامة الرابعة:

معرفة الفكر المعاصر - الغربى - وآليات فهمه ، ووسائل استخدامه والاستفادة من الصالح منه ، والتنبيه إلى جذوره ومصادره ، ونبذ سلبياته ، وبناء منهج للتعامل مع ذلك كله .

فمن الطبيعى - والأمر كذلك - أن يولى المعهد قضية فهم مناهج القرآن العظيم وطرائق التعامل معه من الاهتمام ما تستحقه ، ولذلك تقرر فتح (ملف للقرآن العظيم) تدور الأبحاث فيه ودراساته حول مناهج فهم القرآن المجيد ، وكيفية جعله المصدر الأول لثقافة المسلم المعاصر ، ومعرفته وعلمه وتوجيهه ، وقضايا تفسيره وتأويله ، وتصنيفه وتبويبه ، وعلاقته بعلوم المسلمين قديمًا وحديثًا وعلاقتها به ، وغير ذلك مما يُمَكن العقل المسلم من العودة إلى التعامل السليم مع القرآن الكريم ، ويعيد القرآن العظيم إلى مركز الدائرة فى ثقافة المسلم المعاصر ، ومعرفته وحضارته ليستعيد العقل المسلم عافيته ، ويسترد القرآن المجيد دوره فى عطائه وإنارته .

ولقد رأى المعهد أن يبدأ هذا الملف القرآنى المبارك ببيان مناهج التعامل مع القرآن الكريم ، من خلال مدارسة بين الشيخ الجليل محمد الغزالى مستشار المعهد ، والأستاذ الفاضل الأخ عمر عبيد حسنة المشرف على إعداد وتحرير «كتاب الأمة» ، الذى تفضل مشكورًا بإعداد أفكار هذه المدرسة ، وصاغ أسئلتها ، وفقًا لأهداف المعهد وغاياته من فتح هذا الملف ، وستتلو هذه الحلقة إن شاء اللّه تعالى دراسات وأبحاث ، تتناول الجوانب المختلفة من هذا الموضوع ، الذى نرجو أن نوفق فيه لأداء الواجب الشرعى ، وهو تيسير الذكر للمدكرين .

وفى إطار هذه الجهود أعد المعهد أيضًا مجموعة كبيرة من مرويات السلف فى التفسير ، وقيد الطبع منها : «مرويات الإمام أحمد بن حنبل فى التفسير» التى يشرف الأستاذ الدكتور حكمت بشير أستاذ التفسير فى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة على إصدارها ، وستصدر فى مجلدين إن شاء اللّه .

وفى حَلَقات هذا الملف كتاب : «نظرية المعرفة فى القرآن العظيم» ، التى يعكف الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد على إعدادها الآن .

وسعيًا لتحقيق الهدف الكبير - وهو هيمنة القرآن العظيم على العقل الإنسانى وقيادته - لهدايته - جرت محاولات التكشيف والتصنيف الموضوعى للقرآن العظيم .

والمعهد وهو يطوف فى رحاب القرآن العظيم الفسيحة ، يود أن يؤكد لأولئك الجاحدين والمعاندين أن أية محاولة فهم للإسلام ، أو إصلاح لأحوال المسلمين تتجاوز القرآن العظيم ، أو تهجره أو تتخطاه ، أو تقرؤه بنفس الأعين التى تقرأ بها

معلقات امرئ القيس ، وطرفة ، وعنترة ، وخمريات أبى نواس ، إنما هى محاولات بائرة خاسرة ، لا تحاولها إلا أبصار كليلة وبصائر صدئة .

كما أن تلك القراءات التى تقوم على الهذرمة ، والقراءة اللغوية ، والفهم المعتمد على تردد البصر بين الآية والمعجم اللغوى ، والذهن العملى ، أو الآلى ، لن توصل إلى الوعى الحضارى العمرانى بالقرآن ، ولذلك فتح المعهد ملف القرآن العظيم ليكون سلسلة من الأبحاث والدراسات فى القرآن العظيم وحوله ، تنتهى بتعليم القراءة المتدبرة التى تهيئ المسلمين للفهم الرسالى للقرآن العظيم ، وتخرجهم من إطار الفهم الحرفى الفنى المهنى - الذى سنضعه موضعه من الوسائل الفنية للفهم والإدراك الغائبين الشاملين للكتاب المجيد .

وتتسم هذه المدارسة بمداخل نقدية عديدة ، تبعًا لتنوع الموضوعات التى تشملها ، فى محاولات يبذلها كل من المتدارسين - السائل والمجيب - لاستخلاص وعى قرآنى بشروط معرفية ، تقارب ضوابط المنهج الذى لا يأخذ بكل ما ورد ضمن الفكر السائد الموروث دون تمحيص وتحليل ونقد .

والمدارسة تعمل على استدعاء القرآن فى إطار عالمى متغير ، وبشروط وعى جديد ، لا ندعى أنَّه قد اكتمل فى هذه المدارسة ، التى تكمن أهميتها فى تصحيح كثير من المفاهيم المتعلقة بالتعامل مع القرآن والموضوعات الإسلامية ، كخطوة أولى يؤسس بموجبها الوعى المنهجى الإسلامى المعاصر ، فهى مدارسة تأخذ جانب المراجعة والتقويم لموروثنا الإسلامى من زاويته البشرية .

وهذه المدارسة لم تتجه لإحداث (قطيعة معرفية) مع موروثات الفكر الإسلامى السائد فى التفسير وغيره بل استصحبت منها ما يمكن توثيقه ، مع انفتاح إيجابى على تيارات ومدارس الفكر الإسلامى كافة ، خاصة السابقة فى نشأتها على عصور الانحطاط والتخلف والتوقف العقلى .

ولا نريد أن نضيف فى هذا المدخل ما سيأتى فى المدارسة المتعددة الموضوعات ، أو أن نستبق قضاياها ، ولكننا رأينا أن نمهد لهذه المدارسة بتوضيح مشروعنا ، ورؤيتنا لطبيعة القرآن العظيم ، وما يواجهنا من قضايا فى مجال التعامل معه .

لقد استمد العلماء - كل فى مجال تخصصه - معارف مختلفة من القرآن الكريم ، واستندوا إليه بأفهامهم ، وعالجوه بطرائق مفهومية شتى ، وذلك تبعًا لحالات التطور

الفكرى فى سياق التاريخ البشرى ، فالذى يقرأ القرآن فى إطار وحدته الكلية غير الذى يقرؤه قراءة انتقائية ، تسلخ الآيات عن سياقها الكلى ، كما أن الذى ينظر إليه قصصًا وتشريعًا وترغيبًا وترهيبًا ، غير الذى ينظر إليه جامعًا شاملاً خالدًا مجردًا عن حدود الزمان والمكان ، يغطى الوجود الكونى وحركته ، باعتبار أن القرآن هو المعادل الموضوعى فى الوعى للكون وحركته وعلاقاته ، وعبر استمرارية وتغيرات الزمان والمكان .

لقد حدد القرآن نفسه مواصفاته باعتباره كلام اللّه تعالى ، وأوضح أنه وحى كامل ، يستجيب لما كان من حالات تاريخية سابقة ، ويستمر باتجاه المستقبل عبر مختلف العصور : ﴿ **وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾(١) .

إن هاتين الآيتين تشيران بشكل واضح إلى أن الكتاب الكريم يستمر فى العطاء ، ليستجيب لمختلف العصور ، وتكون الاستجابة بمكنوناته التى تنكشف طبقًا لحالات الاستدعاء الزمانى ، فهو متجدد العطاء : ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** ﴾(٢) .

ومن خواص القرآن العظيم أنه الوحيد المعصوم من بين جميع الكتب السماوية ، ومن خلاله حفظ اللّه سبحانه ذكر من سبقنا كذلك ، فلولا القرآن العظيم لضاع الصحيح السليم من تراث الأنبياء : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾(٣) .

فهو المرجع الموثق الوحيد للآخرين وقضاياهم أيضًا : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾(٤)، ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾(٥)

(١) فاطر : ٣١ - ٣٢ . (٢) الواقعة : ٧٥ - ٧٩ . (٣) الحجر : ٩ .
(٤) النحل : ٤٣ - ٤٤ . (٥) المائدة : ٤٨ .

فهو الكتاب المهيمن على ما حرّف من الكتب السابقة : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ** ﴾(١) .

خصائص القرآن عديدة ، ويمكن تلمسها فى وحدته الكلية المنهجية خاصة فى ترتيبه التوقيفى ، فيما تجاوز مرحلة النزول المجزأ والمرتبط بالمناسبات ، فصار لكل سورة عمودها وهدفها الأساسى ، ووضح المحور الكلى للقرآن العظيم فى وحدته الكاملة .

كما يمكن تلمسها فى الحفظ الإلهى ، وتجدد العطاء وتكشف المكنون تبعًا للاستدعاء الزمانى ، فهو المهيمن على الزمان والمكان والمتغيرات ، بما يمنحه من وعى كامل للوجود الكونى وحركته وعلاقاته ، إنه وعى الكون كله بما فيه مدركًا بكلمات اللّه ، فلا يمكن للماضى أو الحاضر أو المستقبل أن يحيط بوحى الكتاب مطلقًا ، وإنما يأخذ منه ما يستدعيه عصره بنسبية الظرف التاريخى ومتعلقاته الاجتماعية والحضارية وعبر طرائق فكره .

وأهمية هذه الدراسة لا تكمن فى إعادة تفسير أو تأويل ، وإنما تكمن فى محاولة تخليص الفكر الإسلامى من شوائب كثيرة ، تمهيدًا لإحداث النقلة النوعية باتجاه المعرفة والمنهج فى مجتمع إسلامى ، لا نقول : إنه قد استوعب المتغيرات الحضارية العالمية الجديدة ، ولكنه بدأ فى ذلك ، فعالمية الخطاب والفكر والتوجه هى من خصائص الإسلام ، الذى أسس أول عالمية دينية بوصف النبى ﷺ خاتمًا للأنبياء ورحمة للعالمين ، وبوصف القرآن المجيد خاتمًا للكتب السماوية ومهيمنًا عليها .

عالمية التوجه مؤصلة فى بنائنا الإسلامى ، ولهذا نلمس فى المدارسة انفتاحًا حضاريا عالميًا ، بحيث تمضى المدارسة إلى معالجة أزمات الحضارة العالمية بالإسلام ، وبوعى منهجى يصوب منجزات الفكر البشرى المعاصرة ، موضحًا بذلك هيمنة الإسلام على التجربة البشرية كلها من غير أن يطوع نصوص القرآن بعصرانية مفتعلة!! وفى هذا الصدد نود أن نشير إلى أن شروط الوعى المنهجى المعاصر ، الذى نلمس بعضًا من دلالاته فى هذه المدارسة ، لا يتم بمجرد الانتماء الزمانى لهذا

(١) فصلت : ٤٥ .

العصر ، دون انتماء مكانى ، فالنمو والتطور ليس مجرد تراكم كمى لمستجدات معاصرة ، تضاف أو تلحق ببناء المجتمع القديم ، وإنما هو تحول كيفى فى بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، تستدعى تواصلاً جديدًا مع القرآن ، وبشروط وعى جديد ، يكونها هذا الواقع المستجد ، فمفهوم المعاصرة ، أو المجتمع المعاصر ، لا يعنى استمرار المجتمع القديم بأزمته الفكرية فى مرحلة زمنية متقدمة ، وإنما يعنى ما يصيب هذا المجتمع من تحول تاريخى ، يستحق بموجبه صفة المعاصرة ، وفق مقاييسها الموضوعية العالمية الراهنة ، التى تمكنه من إعادة وجوده ، وفى ذلك إعادة اكتشاف المعنى القرآنى نفسه فى واقع متغير ، وعلى هذا الأساس فإن الكثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية قد ترى نفسها معاصرة للعالم بالقياس الزمنى ، أى لأنها موجودة فى نطاق هذا العصر ، ولكنها لا تعيش فى الواقع حالة عصرية ، تنفتح بموجبها على شروط الوعى الحضارى العالمى الجديد ، بما فيه من عقلية نقدية وتحليلية ، وتطلع إلى ضبط المعرفة بالمنهج ومعالجة مشكلات العصر .

إنه نتيجة لهذا الفصام ما بين وجود المجتمعات العربية والإسلامية اليوم بأزمتها الفكرية التاريخية ، وانغلاقها وانشدادها إلى الماضى ، وكونها تعيش فى حقبة الزمن العالمى المعاصر ، أعطاها ذلك شعورًا بالمعاصرة من جهة ، مع عجزها عن التفاعل المكانى ، والزمانى الذى يؤهلها لاكتشاف شروط الوعى العالمى المعاصر من جهة أخرى ، ولذلك نجد أن بعض القيادات الفكرية لهذه المجتمعات لا تزال تعيد التأليف فى فكر الواقع التاريخى وحده ، وتحاول إعادة إنتاج مراحل سابقة فى مراحل لاحقة دون اكتشاف مضمون المتغير العالمى تاريخيًا واجتماعيًا ، إنها تكتفى بترديد موضوعات السلف الصالح - رضوان اللّه عليهم - بما كانوا عليه من اجتهاد فى عصرهم وفى قضاياهم ، دون الأخذ بمضمون المتغير التاريخى وضرورة الاجتهاد فى عصرنا هذا ، فعوضًا من أن نجعل من السلف الصالح قدوةً فى الاجتهاد جعلنا منهم نماذج للتقليد .

إن المدارسة فى الحقيقة هى محاولة لكسر هذا الطوق ، فقد حاولت بعقل العالمين بغايات الدين ومقاصد الشريعة ، وبوعى تام على التطورات التاريخية ، التى أسرت انطلاقة الفقه الإسلامى بمعناه الشامل للفقه السياسى والدستورى وفقه العلاقات

الاقتصادية والدولية ، تحديد كيفية تأثير تلك التطورات التاريخية على موقف الأئمة والتزامهم ناحية فروع الفقه ، كما التزم المحدثون برواية السنن وقضايا الإسناد ، ومن خلال هذا التطور التاريخى يسعى الشيخ الغزالى لأن يستعيد للفقه مكانته التى تأثرت سلبًا بالواقع التاريخى ويكشف هنا عن ثنائيات تعارضت وما كان ينبغى لها ذلك فى ظل الإسلام ، كثنائية الحكم والعلم ، والفقه والتصوف ، والتعارض بين الذين عكفوا على القرآن دون تتبع السنن ، أو عكفوا على السنة دون التزام بموازين القرآن ، وبمعنى آخر فإن المدارسة تكشف عن توجهات المتدارسين لتحقيق الاستقطاب الموحد لفعاليات الأمة الإسلامية وتوجهاتها ضمن إطار قرآنى جامع ، يتجاوز الثنائيات المتعارضة ويتعالى على الجزئيات ، وذلك بهدف تحقيق القرآن العظيم لحضارة كاملة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(١)

ومن هذا المنطلق جاء التوجه لتأسيس التفسير الموضوعى للقرآن ، وبالنظر للسورة القرآنية على أنها وحدة كاملة وانتقاد النظريات التجزيئية .

وقد تعرضت المدارسة فى أحد جوانبها إلى قضية (النسخ) فى القرآن ، حيث فسر بعض العلماء النسخ : بأنه انتهاء أحكام بعض الآيات ، أو رفعها ، وقد انتقدت المدارسة هذا التعريف ورفضته ، استدلالاً بسياق الآيات وترابطها ، وبأقوال بعض العلماء كالشيخ محمد رشيد رضا ، والأستاذ محمد الخضر حسين ، بأن النسخ يتجه إلى خرق ما كان من معجزات حسية ، وقد فرقت المدارسة بين الآيات التكليفية والآيات التكوينية ، معتقدة أن النسخ ينحصر فى الآيات التكوينية ولا ينصرف إلى الآيات التكليفية ، فالنسخ بهذا المعنى يتناول مرحلة تاريخية نسخت ولا ينصرف إلى آيات تكليفية نسخت ، ويعتبر هذا الفهم العلمى مجالاً لدراسة أخرى حول الأديان المقارنة ، والتشريعات الدينية فى سياق التطور التاريخى للبشرية .

---

(١) النحل : ٨٩ .

كما أوضحت المدارسة أن الباب مفتوح لدراسات دينية مقارنة ، يمكن أن تمهد لاكتشاف عالمية الإسلام وشمولية خطابه ، وأن هذه المقارنة سوف تساعد البشرية على اكتشاف خصائص الإسلام .

كما حفلت المدارسة بنظرات صائبة متنوعة توجه إلى كيفية التعامل مع القرآن العظيم ، بوصفه مصدرًا للعلوم الاجتماعية والإنسانية والثقافة والحضارة .

إن المعهد العالمى للفكر الإسلامى وهو يقدم هذه المدارسة ، ليأمل أن يكون بذلك قد فتح الباب على مصراعيه لدراسات متنوعة يكون محورها القرآن العظيم ، تساعد المسلم المعاصر على التزود بالوعى المنهجى ، والفكر الموضوعى ، والقدرة العلمية على بناء نسقه الثقافى ، وتصحيح منهجه الفكرى .

جزى الله أستاذنا الشيخ الغزالى على جهوده هذه خير الجزاء ، ونفع المسلمين بعلومه وثواقب رأيه وصائب توجيهه ، وشكر الله لأخينا الأستاذ عمر عبيد حسنة جهوده المتنوعة فى خدمة الفكر الإسلامى وفى إعداد هذه المدارسة ، وبارك فى المتدارسين وفى المستفيدين من مدارستهما ، إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

جمادى الأولى ١٤١١ هـ نوفمبر ١٩٩٠ م
هيرندن - فيرجينيا
الولايات المتحدة الأمريكية

طه جابر العلوانى
رئيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى

مقدمة

بقلم الأستاذ / عمر عبيد حسنة

الحمد للّه الذى خلق الإنسان ، علمه البيان ، وأنزل القرآن ، ويسره للذكر ، واستنفر لذلك العقل وجعله مناط التكليف ، وأداة النظر والتدبر : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾(١) ، ونعى على الذين يعطلون عقولهم ، ويغلقون نوافذ المعرفة : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾(٢) ، كما نعى على الذين لا يتدبرون القرآن ويكتفون منه بالقراءة التى لا تتجاوز تراقيهم إلى قلوبهم وعقولهم : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾(٣) .

وصلى اللّه على محمد النبىّ الخاتم ، الذى انتهت إليه أصول الرسالات السماوية جميعًا ، وتجمعت لرسالته تجربة النبوة من لدن آدم عليه السلام ، فحمل القرآن بين دفتيه الشهود التاريخى ، بما قصّ من أخبار الأمم السابقة ، والشهود الحضارى بما تجسد من سيرة الرسول ﷺ ، وتمثّل فى خير القرون ، والشهود المستقبلى بما أصل من قواعد ، ووضع من معالم ، وكلف من نظر وتدبر فى سنن اللّه فى الأنفس والآفاق التى هى السبيل للتمكين فى الأرض ، والقيام بالشهادة على النّاس ، والقيادة لهم : ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** ﴾(٤) .

وبعد :

فواقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن مؤرق ، وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق إلى درجة نخشى معها أن نقول : إن علل الأمم السابقة التى حذر منها القرآن ، ونبّه إليها الرسول ﷺ ، تسربت إلى العقل المسلم : ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾(٥) ، أى : لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً .

(١) القمر : ١٧ . (٢) البقرة : ١٧١ . (٣) محمد : ٢٤ .
(٤) ص : ٨٨ . (٥) البقرة : ٧٨ .

قال ابن تيمية[1] رحمه اللّه : عن ابن عباس[2] وقتادة[3] فى قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ ، أى غير عارفين بمعانى الكتاب ، يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم ، لا يدرون ما فيها ... وقوله : ﴿ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ ، أى : تلاوة لا يعلمون فقه الكتاب ، إنما يقتصرون على ما يُتلى عليهم ...

والأمية العقلية هذه ، تسود الأمة فى حال التقليد ، والغياب الحضارى ، والعجز عن تدبر القرآن ، والتعامل مع الأحداث ، واتخاذ المواقف ، واكتشاف سنن اللّه فى الأنفس والآفاق ، وحسن تسخيرها ، ومعرفة كيفية التعامل معها ، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه ، والتدخل حين نعلم السنَّة وأنها تتكرر ولا تتبدل ، فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد ، فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى اللّه ، أو نفر من قدر اللّه إلى قدر الله ، كما قال عمر بن الخطاب[4] رضى اللّه عنه ... ويقول ابن القيم[5] رحمه اللّه : ليس الرجل الذى يستسلم للقدر بل الذى يحارب القدر بقدر أحب إلى اللّه ... (مدارج السالكين ، ج١) .

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرّانى الدمشقى ، تقى الدين ، الإمام شيخ الإسلام ، حنبلى ، ولد فى حرّان عام ٦٦١هـ وانتقل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر ، سجن بمصر مرتين من أجل فتاواه ، وتوفى بقلعة دمشق معتقلاً ، كان داعية إصلاح فى الدين ، آية فى التفسير والعقائد والأصول ، فصيح اللسان ، مكثرًا من التصنيف ، توفى ٧٢٨ هـ .
من تصانيفه : «السياسة الشرعية» و « منهاج السنة» و «درء تعارض العقل والنقل» ، وطبعت فتاواه فى الرياض فى ٣٥ مجلدًا .

(٢) هو عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب ، قرشى هاشمى ، حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولد عام ٣ قبل الهجرة ، أسلم صغيرًا ولازم النبى ﷺ بعد الفتح و روى عنه ، كان الخلفاء يجلونه ، شهد مع على الجمل وصفين ، وكف بصره فى آخر عمره ، كان يجلس للعلم ، فيجعل يومًا للفقه ، ويومًا للتأويل ، ويومًا للمغازى ، ويوما للشعر ، ويومًا لوقائع العرب ، توفى بالطائف عام ٦٨ هـ .

(٣) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسى ، من أهل البصرة ، ولد ضريرًا عام ٦١هـ ، أحد المفسرين والحفاظ للحديث ، قال أحمد بن حنبل : قتادة أحفظ أهل البصرة ، وكان مع علمه بالحديث رأسا فى العربية ، ومفردات اللغة وأيام العرب ، والنسب ، مات بواسط فى الطاعون عام ١١٨هـ .

(٤) هو عمر بن الخطاب بن نفيل ، أبو حفص ، الفاروق ، صاحب رسول الله ﷺ ، وأمير المؤمنين ، ثانى الخلفاء الراشدين ، كان النبى ﷺ يدعو اللّه أن يعز الإسلام بأحد العمرين ، ولد عام ٤٠ قبل الهجرة ، فأسلم هو ، وكان إسلامه قبل الهجرة بخمس سنين ، فأظهر المسلمون دينهم ، ولازم النبى ﷺ ، وكان أحد وزيريه ، وشهد معه المشاهد ، بايعه المسلمون خليفة بعد أبى بكر ، ففتح اللّه فى عهده الفتوح ، ونشر الإسلام حتى قيل : إنه انتصب فى عهده اثنا عشر ألف منبر ، وضع التاريخ الهجرى ، ودوّن الدواوين ، قتله أبو لؤلؤة المجوسى وهو يصلى الصبح عام ٢٣ هـ .

(٥) هو محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى ، شمس الدين من أهل دمشق ، من أركان الإصلاح الإسلامى ، وأحد كبار الفقهاء ، تتلمذ على ابن تيمية وانتصر له ولم يخرج عن شىء من أقواله ، وقد سجن معه بدمشق ، كتب بخطه كثيرًا ، وألف كثيرًا ، ولد عام ٦٩١ هـ ، وتوفى عام ٧٥١هـ .
من تصانيفه : «الطرق الحكمية» ، و «مفتاح دار السعادة » ، و « الفروسية» ، و «مدارج السالكين» .

إنها الأمية العقلية التى نعيشها اليوم مع القرآن ، والتى تعنى ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة ، ووسائل النشر ، وتقنيات التسجيل . . ولعل فيما يذكره ابن كثير[1] رحمه اللّه عند تفسير الآية الثالثة والستين فى سورة المائدة ، فى الجدال الذى وقع بين الرسول ﷺ وصاحبه زياد بن لبيد[2] ، مؤشرًا دقيقًا على الأمية العقلية التى صرنا إليها مع كتاب اللّه .

فعن الإمام أحمد[3] رحمه اللّه ، قال : ذكر النبى ﷺ شيئًا فقال : «**وذاك عند ذهاب العلم**» ، قلنا : يا رسول اللّه ، كيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن ونقرئه أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئون أبناءهم ؟ فقال : «**ثكلتك أمك يا بن لبيد ، إن كنتُ لأراك من أفقه رجل فى المدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء ؟**»[4] .

وقد تكون مشكلة المسلمين كلها اليوم فى منهج الفهم الموصل إلى التدبر وكسر الأقفال من على العقول والقلوب ، وتجديد الاستجابة ، وتجديد وسيلتها ، ليكونوا فى مستوى القرآن ، ومستوى العصر ، ويحققوا الشهود الحضارى ، ويتخلصوا من

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، أبو الفداء ، البصروى ثم الدمشقى الشافعى ، المعروف بابن كثير ، مفسر ، محدث ، فقيه ، حافظ ، قال العينى وابن حبيب : «كان قدوة العلماء والحفاظ ، عمدة أهل المعانى والألفاظ ، وسمع وصنَّف ودرَّس وألّف» . وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير ، ولد عام ٧٠١هـ ، وتوفى عام ٧٧٤هـ .
من تصانيفه : «شرح تنبيه أبى إسحاق الشيرازى» ، و«البداية والنهاية» ، و«شرح صحيح البخارى» ، و«تفسير القرآن العظيم» ، و«الاجتهاد فى طلب الجهاد» ، و«الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث» ، و«جامع المسانيد» جمع فيه أحاديث الكتب الستة والمسانيد الأربعة .

(٢) هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصارى ، شهد العقبة وبدرًا وكان عامل النبى ﷺ على حضرموت ، وولاه أبو بكر رضى اللّه عنه قتال أهل الردة من كندة .

(٣) هو أحمد بن حنبل الشيبانى ، أبو عبد اللّه ، من بنى ذهل بن شيبان الذين ينتمون إلى قبيلة بكر بن وائل ، وإمام المذهب الحنبلى ، وأحد أئمة الفقه الأربعة ، أصله من مرو ، ولد ببغداد ، وامتحن فى أيام المأمون والمعتصم ليقول بخلق القرآن فأبى وأظهر اللّه على يديه مذهب أهل السنة ، ولما توفى الواثق وولى المتوكل أكرم أحمد ، ومكث مدة لا يولى أحدًا إلا بمشورته ، ولد عام ١٦٤ هـ ، وتوفى عام ٢٤١ هـ .
له : «المسند» وفيه ثلاثون ألف حديث ، و«المسائل» ، و«الأشربة» ، و«فضائل الصحابة» وغيرها .

(٤) الحديث رواه أحمد فى مسنده ، ورواه ابن ماجة فى سننه عن زياد بن لبيد الأنصارى رضى اللّه عنه فى كتاب الفتن ، ورواه الترمذى فى سننه فى باب ما جاء فى ذهاب العلم ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

الحال التى استنكرها القرآن : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(١) ، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾(٢) .

وهنا قضية ، أعتقد أنه من المفيد التوقف عندها ولو قليلاً ، ذلك أن كثيرًا من العاملين فى حقول الفكر والمعرفة ، يظنون أن معادلة المسلمين الصعبة اليوم وأزمتهم الفكرية تتمثل فى غياب المنهج ، ويجهدون أنفسهم بالبحث والدرس ، وتقليب الأمر على وجوه كثيرة ، وقد يكون من ذلك التطلع إلى ما عند الآخرين !

وفى تصورى : أن الأزمة التى لا نزال نعانى منها ، ليست بافتقاد المنهج ، فالمنهج (مصدر المعرفة) موجود ، ومعصوم ، ومُختبر تاريخيًا . . لكن المشكلة بافتقاد وسائل الفهم الصحيحة ، وأدوات التوصيل ، وكيفية التعامل مع القرآن . . أى : منهج فهم القرآن والسنة ، فاللّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(٣) ويقول : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٤) ، والرسول ﷺ يقول : «لو أن موسى كان فيكم حيّا ما وسعه إلا أن يتبعنى»(٥) ، وذلك عندما تطلع بعض الصحابة إلى تحصيل المعرفة من التوراة .

ونخشى عند التساهل والقبول بأن الأزمة التى تعانى منها أزمة منهج ، وليست أزمةفهم للقرآن الذى هو مصدر للمعرفة ، عندها قد ينأى بنا السير إلى السقوط فى التعامل مع مناهج أخرى ، والافتتان عما نزل إلينا ، أو بعضه : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(٦) .

لذلك ، لابد أن نقرر : بأن الأزمة أزمة فهم ، وأزمة تعامل ، وأزمة أمية عقلية ، صرنا إليها بذهاب العلم (مناهج الفهم) و (وسائل المعرفة) .

والجهود ، فيما نرى اليوم ، يجب أن تنصب على منهج الفهم ، وإعادة فحص واختبار المناهج القائمة التى أورثتنا ما نحن عليه ، والتحرر من تقديس الأبنية

(١) محمد : ٢٤ . (٢) ص : ٢٩ . (٣) المائدة : ٤٨ . (٤) الأنعام : ١٥٣ .

(٥) الحديث رواه أحمد فى مسنده ، وأبو يعلى والبزار ، عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما ، وذكر الهيثمى أن فى رواته مجالد بن سعيد ، ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما (مجمع الزوائد ١ / ١٧٤) .

(٦) المائدة : ٤٩ .

الفكرية الاجتهادية السابقة التى انحدرت إلينا من موروثات الآباء والأجداد والمناخ الثقافى الذى يحيط بنا منذ الطفولة ، ويتسرب إلى عقولنا فيشكلها بطريقة التفاعل الاجتماعى ، الأمر الذى أدى إلى انكماش الفكر والرؤية القرآنية فى واقع حياتنا ، وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة ، إلى الركود والتحنط فى بطون التاريخ التى تشكلت فى عصور التخلف والتقليد والتى حالت دون إدراك أبعاد النص القرآنى ، والقدرة على تعديته للزمان والمكان ، وذلك أن الصورة التى طبعت فى أذهاننا ، فى مراحل الطفولة ، للقرآن أنه : لا يستدعى للحضور إلا فى حالات الاحتضار والنزع ، والوفاة ، أو عند زيارة المقابر ، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية ، وهى قراءات لا تتجاوز الشفاه .

ولذلك ، اقترنت الصورة الموروثة للقراءة بحالات من الخوف والاكتئاب ، ينفر منها الإنسان ، ويستعيذ بالله من سماعها . . فإذا تجاوزنا مؤسسات الأمية والعامية التى تشكلت من خلالها تلك الصورة المفزعة للقرآن ، إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم ، رأينا أن الطريقة التى يُعَلم بها يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكر والنظر ، إن لم يكن مستحيلا . . فالجهد كله ينصرف إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف ، وكأننا نعيش المنهج التربوى والتعليمى المعكوس . . فالإنسان ، فى الدنيا كلها يقرأ ليتعلم ، أما نحن فنتعلم لنقرأ ! لأن الهم كله ينصرف إلى حسن الأداء . . وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلى التدبر والتأمل ، وغاية جهده إتقان الشكل . . وقد لا يعيب النَّاس عليه عدم إدراك المعنى قدر عيبهم عدم إتقان اللفظ ! ولا أزال أذكر أننا وبعد عدة سنوات من التعليم ، كان مدرس القرآن يراجع بعضنا فى تحسين النطق بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم مفتتح القراءة .

ونحن هنا لا نهوّن من أهمية ضبط الشكل ، وحُسن الإخراج ، وسلامة المشافهة ، لكننا ندعو إلى إعادة النظر بالطريقة ، حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التى تترافق مع القراءة ، وقد يكون ذلك بأن نبدأ التلقين بالأداء الحسن ابتداء ، مع التوجيه اللافت للنظر صوب المعنى ، ولا نلتفت إلى ضبط الشكل إلا فى حالات التصويب ، ولتكن حالات الاستثناء .

وقد يكون من أخطر الإصابات التى لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه وبين التدبر ، وكسر الأقفال ، ووضع الأغلال والآصار ، والتحقق بالفكر القرآنى والرؤية القرآنية الشاملة ، والاغتراف منها لعلاج الحاضر ، والامتداد صوب المستقبل ، واعتماده مصدرًا للمعرفة والبعث الحضارى ، التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التى استمدت من القرآن فى العصور الأولى ، هى نهاية المطاف ، وأن إدراك أبعاد النص مرتهن بها ، فى كل زمان ومكان ، وما رافق ذلك من النهى عن القول فى القرآن بالرأى ، وجعل الرأى دائمًا قرين الهوى ، وسوء النية ، وفساد القصد . وفى هذا ما فيه من محاصرة للنص القرآنى ، وقصر فهمه على عصر معين ، وعقل محكوم برؤية ذلك العصر ، وحجر على العقل ، وتخويف من التفكر ، الأمر الذى يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه نص القرآن .

هذا ، علاوة على أن الاقتصار على هذا المنهج فى النقل والتلقى ، يحاصر الخطاب القرآنى نفسه ، ويقضى على امتداده وخلوده ، وقدرته على العطاء المتجدد للزمن ، وإلغاء لبعده المكانى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾(١) ، ولبعده الزمانى : ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾(٢) وإلغاء التكليف القرآنى من السير فى الأرض ، والنظر فى البواعث والعواقب ، واستمرار النظر فى الأنفس والآفاق ، والاكتشاف المستمر للسنن والقوانين ، والتعامل معها فى ضوء العطاء العلمى ، والكشوف البشرية فى إطار علوم الكون والحياة : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾(٣) .

ولعل ترسب هذه القناعة العجيبة الغريبة ، هى من الأقفال الأولى التى يجب كسرها لينطلق الفهم من قيوده وأغلاله وآصاره ، فيتحقق العقل بالرؤية القرآنية فى أبعاد الحياة المختلفة ، وينضح معرفة وحضارة مستمدة من الوحى المعصوم ، لأن هذه القناعة إذا استمرت سوف تلغى الحاضر والمستقبل معًا ، وتسقط عن القرآن صفة الخلود الزمانى ، والامتداد المكانى .

ومن المفارقات العجيبة حقًا للعقل المسلم جرأته على إلغاء التكليف القرآنى بالنظر والتدبر وإسقاطه باجتهاد بشرى ، وذلك لعدم إدراكه للنص النبوى - البيان القرآنى-

(١) سبأ : ٢٨ . (٢) الأحزاب : ٤٠ . (٣) فصلت : ٥٣ .

الذى يقرر : أنها قد تتأتى فهوم مستقبلية أكثر وعيًا وإدراكًا للنص القرآنى : «**بلغوا عنى ولو آية**»[1] ، «**فَرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع**»[2] ، «**فربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»[3] . . . ونحن بهذا ، لا ندعو إلى القفز فوق الفهوم التاريخية للقرآن ، وهذا الميراث الثقافى الذى يعتبر مفخرة من مفاخر الفكر ، والاغتراف من القرآن مباشرة ، بمؤهلات وبدون مؤهلات ، وإنما نريد أن نحرر العقل من قيوده حيث حُرّم عليه النظر ، وندعو إلى النظر الذى لا يتحقق ولا يتأتّى ، ولا يستحق أن يسمى نظرًا إذا تجاهل الفهوم السابقة ، ولعل من أبسط مستلزماته : اصطحاب الاجتهادات السابقة ، ولكن لا نقتصر عليها ، فلكل عصر رؤيته ، فى ضوء مشكلاته ومعطياته .

إن الدعوة إلى محاصرة العقل ، والحجر عليه ، وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين ، هو الذى ساهم بقدر كبير فى الانصراف عن تدبر القرآن ، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التى حالت دون النظر ، وأبقى الأقفال على القلوب ، وصار القرآن تناغيم ، وترانيم . وبدل أن يكون الميراث الثقافى وسيلة تسهل الفهم ، وتغنى الرؤية ، وتعين على التدبر ، أصبح - من بعض الوجوه - عائقًا يحول دون هذا كله . . . وشيئًا فشيئًا ، تتحول القدسية من القرآن إلى السُّنة ، فَتُجعل السُّنة حاكمة على القرآن ، ومن ثمَّ انتقلت القدسية لفهوم البشر ، وبقى الكتاب والسُّنة للتبرك .

فالمشكلة المستعصية فى اختلاط قداسة النص ببشرية التفسير والاجتهاد لذلك النص ، وإدراك مرماه ، حيث عُدَّ رأى الشيخ أو المتبوع فى تفسير نص ما أو فهمه ، هو الأمر الوحيد ، والممكن ، والمحتمل ، والأكمل لمدلول ذلك النص ، وصار أى

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه ، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما فى كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل .

(٢) الحديث رواه الترمذى فى سننه بلفظ : «نضر اللّه أمرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع» ، وهو من حديث عبد الله بن مسعود رضى اللّه عنه ، فى أبواب العلم باب الحث على تبليغ السماع ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث رواه الترمذى فى سننه بلفظ : «نضر اللّه امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه» ، وهو من حديث زيد بن ثابت رضى اللّه عنه ، فى أبواب العلم ، باب الحث على تبليغ السماع ، وقال : حديث حسن .

رأى أو احتمال آخر ، خروجًا عن الإجماع أو نوعًا من الابتداع ! وقد لا نستغرب فى هذا المناخ أن ينتهى بعض الفقهاء والأصوليين إلى القول : (كل آية أو حديث تُخالف ما عليه أصحابنا ، فهو مؤول أو منسوخ) ! وهذا القول منسوب لأبى الحسن الكرخى[1] من الأحناف .

وقد يكون هذا واقع العقل المسلم لكثير ممن سيطر عليهم مناخ التقليد الجماعى ، وإن لم يصرحوا به ، وأصبح كف العقل عن فهم وتدبر القرآن ، مناخًا عامًا يصعب الانفلات منه . وجاءت ثمرة ذلك : مجاهدات عقلية ، وجهود فكرية غير مجدية ، استغرقتها مسائل الفروع التى كُتبت فيها مئات المؤلفات من المتون ، والحواشى ، والشروح ، والاختصارات ، وضاعت بذلك مقاصد الدين . وحوصر امتداد القرآن والسُّنة عن شُعَب المعارف الأخرى ، كما توقف الامتداد فى بُعْدى الزمان والمكان ، وانطفأت بذلك جذوة العقل السليم ، وتجمدت قيم الدين ومقاصده فى مجال الشورى ، والعدل الاجتماعى ، والمساواة والحرية ، وغاب الفقه القرآنى بمعناه الشامل ليقف عند حدود الحلّ والحرمة لبعض الفرعيات ، وقطعت الرؤية القرآنية الشاملة ، وسادت النظرات الجزئية ، وعم العجز ، وتوقفت النظرة الموضوعية لتخلى مكانها للرؤى الموضعية .

لقد أورثنا مناخ التقليد الجماعى الذى عطّل فينا ملكة الاجتهاد ، والإبداع ، والإنجاز لقرون طويلة نوعًا من العجز المزمن ، جعلنا دون سوية التعامل مع القرآن ، وإدراك سننه فى الأنفس والآفاق ، والاقتصار على بعض مئات من الآيات نظر فيها الأقدمون على أنها آيات الأحكام التشريعية . . ولا نزال ، إلى اليوم ، نبدى فيها ونعيد من خلال ميراث الفقهاء وليس من خلال موقعها من الرؤى القرآنية حيث للآيات مقاصد عدّة : تربوية ، واجتماعية ، ونفسية ، وكونية ، ومنبهات حضارية ، ووسائل الكشف العلمى حيث لا يخرج الحكم التشريعى عن أن يكون واحدًا منها .

---

(١) هو عبيد الله بن الحسين ، أبو الحسن الكرخى ، فقيه حنفى ، انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق ، مولده بالكرخ عام ٢٦٠ هـ ، ووفاته ببغداد عام ٣٤٠ هـ .
من تصانيفه : رسالة فى الأصول التى عليها مدار فروع الحنفية ، و«شرح الجامع الصغير» ، و«شرح الجامع الكبير» وكلاهما فى فقه الحنفية .

ويمكن أن نقول بأن العجز لحق أيضًا بطريقة التعامل مع آيات الأحكام نفسها التى أخذت هذا الجهد ، وتلك المساحة من الميراث الثقافى ، وأصبحنا أتباعًا مقلدين ، غير قادرين ليس فقط على تجاوز فهم السابقين والامتداد بالآيات إلى آفاق إضافية ، وإنما عاجزين أيضًا عن الإتيان بمثال آخر غير ما جاء به الأقدمون ، وهذا من أشنع حالات التقليد .

وكما أن مناخ التقليد الجماعى جعلنا عاجزين عن الامتداد ، ودون سوية التعامل مع القرآن ، فكذلك أصبحنا - بذلك - دون سوية التعامل مع الواقع المعاصر ، لأننا أوقفنا عطاء القرآن للزمن ، وهو المتغير السريع ، وحاولنا التفاهم معه بفهوم عصر آخر يختلف فى طبيعته ، ومشكلاته ، وعلاقاته ، ومعارفه عن عصرنا ، وأعطينا صفة القدسية والقدرة على الامتداد والخلود لاجتهاد البشر ، ونزعنا صفة الخلود والامتداد عن القرآن ، عمليًا وإن كنا نرفضها نظريًا ، كما أسلفنا .

وكَلَوْنٍ من التعويض عن العجز فى الامتداد بالرؤية القرآنية ، والتعامل مع العصر - الشهود الحضارى - ما نراه اليوم من التوسع فيما اصطلح على تسميته : «الإعجاز العلمى فى القرآن» ، على الرغم من التحفظات على هذه التسمية لدى كثير من علماء المسلمين الذين يرون أن ميدان الإعجاز ليس المجال العلمى أصلاً ، فالعلم فى تقدم وتطور مستمر ، وقد بلغ اليوم شأوًا واسعًا ، وكلما تقدمت الأيام ، وتراكمت المعارف ، وتقدمت الحقيقة العلمية أكثر . . وخلود الرسالة يعنى ، فيما يعنى ، خلود المعجزة ، وعدم قدرة الإنسان على الإتيان بمثلها فى كل زمان ومكان . وأظن أن تطبيق هذا فى مجال الإعجاز العلمى سيؤدى إلى كثير من المفارقات والتمحلات . . والقرآن كتاب هداية ، وليس كتاب «تكنولوجيا» . . ولا أحد يستطيع أن يُنكر أن القرآن عرض لبعض الحقائق العلمية ، ولفت نظر الإنسان إليها ليحقق هدفه فى الهداية ، وينبه الإنسان إلى وسائل التعمير وبناء الحضارة ويفتح طريق البحث العلمى أمام المسلمين ، وإن كثيرًا مما ذكر من الحقائق لم تكن معروفة فى عصر نزول القرآن ، وأن العلم أثبتها بعد آماد طويلة .

وقد تؤكد المعارف العلمية كل يوم ، ما يكسبنا الاطمئنان إلى صحة النصّ القرآنى ولا شك أن الحقائق العلمية التى عرض لها القرآن فى عصر الأمية العلمية ،

تعتبر من دلائل النبوة ، وبرهان صدقها ، أما تسميتها «إعجازًا» ، فالأمر ليس بهذه السهولة والبساطة ، على الرغم من أن القرآن وضع العقل البشرى فى المناخ العلمى ، ووفر له الإسلام الشروط والظروف المطلوبة . . فموضوع القرآن : صياغة الإنسان ، ووظيفة الإنسان : القيام بأعباء الاستخلاف ، والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير ، وحسن التعامل معها . لذلك ، طلب القرآن : النظر ، والتدبر ، والملاحظة ، والاختبار ، وإدراك علل الأشياء ، وأسبابها ، وامتد فى ذلك إلى استشراف المستقبل : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾(١)

والمسلمون اليوم مطمئنون إلى صدق النبوة ، وصحة النص ، وإن احتجنا اليوم لهذا اللون من الطرح ، فقد يكون مفيدًا مع غير المسلمين .

وأخشى ما أخشاه ، أن يستغنى المسلمون اليوم عن محاولة الإبداع والإنجاز العلمى فى مختلف الميادين فى ضوء هداية القرآن ، والاستنفار لذلك ، بالكلام عن الإعجاز العلمى كلون من التعويض . إذ نرى بعض مسلمى اليوم كلما اكتشفت نظرية ، أو حقيقة علمية على يد غير المسلمين ، يجهدون أنفسهم - عن حسن نية- فى التدليل على أن القرآن عرض لها ، وأثبتها قبل العلم ! وأعتقد أن هذا دليل للواقع المتخلف والعاجز ، فإذا كان القرآن قد عرض لها ، فما بال المسلمين لم يفقهوها ؟

لذلك ، نخشى أن ينقلب موضوع الإعجاز العلمى المعاصر من منبه حضارى مؤرق ، إلى صورة من التفاخر والتظاهر المعوق ، وتكريس التخلف والأمية العقلية .

وقضية أخرى ، نرى أنه لابد من أن نعرض لها فى هذه المقدمة ، وهى : أن لكل علم من العلوم الإنسانية والتجريبية ، مناهج ، وآلات ، وتقنيات خاصة لفهمه وإدراكه ، حتى إننا نرى اليوم ، لكل شعبة أدوات خاصة لفهمها فى مجال العلم الواحد . ففى مجال النقد الأدبى ، مثلاً ، هناك مناهج متعددة ، وفى مجال التربية ، والأخلاق ، والتاريخ ، والسياسة والاجتماع . . . إلخ ، أصبح لكل علم أدواته وآلات فهمه ، ولكل منهج خصائصه وشروطه وميزاته ، ولكل معرفة وسيلتها التى توصل إليها .

(١) ص : ٨٨ .